العدد 1960 - السنة السابعة
الجمعة 17 ذو القعدة 1435 - الموافق 12 سبتمبر 2014
Friday 12 September 2014 - No.1960 - 7th Year

صيغة أشعارنا في بادية الشام مثال !!

أثر الرواية في إفساد الشعر

■ أكثر الشعر النجدي يطبع في بعض الأقطار بلهجة بعيدة عن الشاعر

■ يصنعون قصصاً مصاحبة لبعض هذه الأنماط الشعبية من خيالهم كعادة الرواة

■ ليس الأمر مقتصراً على تحوير الشعر بل السطو على القصيدة والإضافة إليها

■ عمد الشاعر إلى الترقيع في قصيدة القهوة الشهيرة للقاضي ليس في لهجة الظلماوي قولا مثل « عاللي »

يعتبر الأدب الشعبي في أصله أدباً شفاهياً يتداوله الناس بينهم، ويلعب فيه الرواة دوراً كبيراً فهم الوسيلة الإعلامية التي تنقله وتتيحه للناس في مجالسهم ومجتمعاتهم، ولذلك فكل تحريف أو تبديل أو خطأ فأغلب ما يكون من الناقل «الراوي» لأن الناس يتلقونه من لسانه ويرددونه كما سمعوه بدون وعي أو معرفة بما قد يحتويه من الأخطاء، وبحكم التقارب الاجتماعي والجغرافي واللغوي بين البلاد العربية، نجد أن هناك تشابها في أدبها الشعبي رغم تعدد اللهجات واختلافها، بل نجد أن بعض القصص والقصائد والأمثال والأساطير تتكرر بنفس الصورة تقريباً في أكثر من بلد نتيجة للتواصل الإنساني المستمر بينها والتبادل الأدبي الذي يقوم به الرواة من هنا عمد هؤلاء الرواة عندما يسمعون قصيدة أو قصة أو مثل بلهجة أخرى لا يستوعبها المجتمع المحيط بهم على القيام بتوضيحها باستبدال الألفاظ غير المفهومة بألفاظ أخرى مفهومة وتحويرها إلى لهجة مجتمعهم وقد يصنعون قصصاً مصاحبة لبعض هذه الأنماط الشعبية من خيالهم كعادة الرواة والحكواتية في كل زمان ومكان.

ولكن عند المقارنة بين الأصل والصورة المعدّلة فيما اطلعنا عليه من نماذج نلاحظ التشويه الذي طرأ على الأصل مع ما أدى إليه من التعمية على المتلقي، هذا الأمر أدى إلى فقدان هوية هذا الأدب الشعبي المنقول إضافة إلى ضياع حقوق أصحابه الأصليين، ولأن الشعر هو النمط الأكثر تشويقاً بين الآداب الشعبية كما أنه الأكثر خصوصية من ناحية اللهجة فقد ظهر إثر هذا التغيير في نصوصه جلياً في ظل الاختلاف بين لهجة الشاعر ولهجة الراوي.

تحدث أبو عبدالرحمن بن عقيل في الجزء الرابع من كتابه «ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد ص22» عن أثر الرواية في إفساد الشعر إن اختلفت لهجة الراوي عن لهجة الشاعر، وقال: إن سبب توحد اللهجة إنما هو من تصرف الرواة فإذا روي لغير أهل نجد روي بلهجة غير لهجتهم! وبين أن أكثر الشعر النجدي يطبع في بعض الأقطار بلهجة بعيدة عن الشاعر، وسنعرض لبعض النماذج ذات الأدلة على ما سبق بيانه في بلاد الشام «سوريا والأردن وفلسطين» ومقارنتها بأصلها في لهجة وسط الجزيرة العربية ومنها هذا النموذج عن القهوة:

المعاني إضافة إلى أنها تشوه الموروث وتظهره بمظهر كسيح لا يعبر عن حقيقته وواقعه، ولا شك أن الرواة هم السبب الرئيسي في هذا التحوير غير المحبذ للنصوص الشعرية في الجزيرة العربية، وسنعرض في البقية الباقية من الموضوع نماذج أخرى تؤكد عمق التأثير لشعراء الجزيرة العربية في الأدب الشعبي في بلاد الشام بصفة عامة.

النص بين الشاعر والراوي:

فالشاعر حين ينظم القصيدة إنما ينظمها بلسانه الذي يمثل لهجته وربما دخل في قصيدته بعض الألفاظ من لهجة أخرى غير لهجته الأصلية عندما يتأثر الشاعر ببيئة أخرى غير بيئته الأصلية وهذا ما نلمسه في شعر بعض أهل نجد الذين انتقلوا للعيش في نواحي العراق أو الخليج كالشاعر ابن لعبون مثلا ، فالنص يخرج بلهجة الشاعر التي يتعاطاها في حياته العامة ويتداوله الرواة في محيط الشاعر بنفس اللهجة ولكنه عندما يتجاوز هذا المحيط يأخذ في البعد التدريجي عن النص الأصلي حتى يكون في آخر نقطة جغرافية يصل إليها أبعد ما يكون عن النص الأصلي فإذا فرض أن قال النص ينتمي لقبيلة في أقصى الجنوب فنصه حين يصل لوسط الجزيرة يكون قد فقد شيئا من ألفاظ الشاعر الخاصة بلهجته فإذا اتجه شمالا فقد بعضها الآخر فإذا تجاوز شمال الجزيرة إلى بادية الشام يكون قد فقد تلقي الفاظه الأصلية على الأقل بل أن النص يختلف ليس في لهجته فقط بل حتى في عدد أبياته وترتيبها وترتيب الأشطر فيها بل يمتد إلى القصة المرتبطة بالنص فربما حرفت وربما اختلقت قصة جديدة لهذا النص، والنص حين يرويه شخص ينتمي لغير قبيلة الشاعر ففي الغالب لابد أن يكون فيه قدر من الاختلاف يقل أو يكثر حسب قربه أو بعده الجغرافي من هذه القبيلة بحكم تعدد لهجات القبائل واختلافها في الجزيرة العربية، هذا الحال كان في مرحلة المشافهة وهي المرحلة السابقة لمرحلة التدوين فأما بعد مرحلة التدوين فقد أشرنا سابقا إلى كلام أبي عبدالرحمن بن عقيل في كون أغلب الدواوين الشعرية سابقا كانت تطبع في الخليج العربي وكان جامعوها يدونون بعض ألفاظها بلهجتهم كقلب القاف جيما مثلا كما تراه عند الحائم و غيره، فلابد أن معرفة لهجة الشاعر تصحح كثيرا من أخطاء الرواة في نقل النصوص ومن ضمن النصوص التي اطلعت عليها في الأدب الشعبي في بلاد الشام قول الشاعر:

يامعدي الفنجال حيث تسوقه
خص القروم ثم انحر هل الناس
صيه وعدله للي تلاعج بروقه
للي يفكهن يوم الأرياق بباس

1. وما هذان البيتان إلا جزء من قصيدة ابن رفاده التي قال فيها في:

يا مسوي الفنجال عجّل بسوقه
خص الشيوخ وبد ناس على ناس
خص الشجاع اللي تخلى طروقه
فكاك ربعه يوم الارياق بباس
والثاني اللي كل عد يذوقه
فوايهه تشهر جديد ودراس
والثالث اللي مسرف في حقوقه
يملا الصحن ويرفض النفس الانفاس
وباقي الملا اللي هينات حقوقه
عظهم من الدنوة ولا عاد به باس

فعندما المقارنة بين النصين نلاحظ التباين الواضح في الألفاظ ، ومن الأمثلة أيضا التي لفتت انتباهي هذا النص المتداول في الأدب الشعبي الفلسطيني:

ياتركي يابن حميد ويش هالبعيري
ما تجلبونه ان كان تبغون الأرباح
امه نعامة ويجعلوها بعيري
ولده مفلطاني يجي على خف وجناح
يقوم من بحره ويبات الحظيرة
ويكرة وانه على قصر ابوالعوف مرتاح
موكوله القطن وبالشعيري
ما يبرك إلا في ذرا كل مقراح

ومن الغرابة انتقال هذا النص من وسط الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وذلك لأنه من النصوص غير الجادة ولكن الراوي الشعبي لا يفرق فجزالة القصيدة أو موضوعها ليست شرطا لانتقالها من بيئة إلى بيئة فالراوي الشعبي يسجل كل ما يسمع وينقله معه من مكان إلى مكان ولكن ما أثار عجبي هو تفسير المؤلف الذي أورد هذا النص لجملة « يا ترك يابن حميد» حيث قال: "ربما يقصد السلطان عبدالحميد العثماني" ولم يعلم أن هذا النص إنما خليط لمساجلة شعرية جرت بين الشيخين تركي بن حميد العتيبي ومحمد بن هادي القحطاني وأصلها قول تركي:

يا راكب اللي مايداني الصقيري
هميلع من نقوة الهجن سرساح
امه نعامة واضربوها بعيري
جاء مشيهاتي على خف وجناح
عليه خرج من سلوك الحريري
وسفايفه مثل الغرابين طفاح
يسرح من الطايف ويمسي البصيري
والسوق والبصرة يدهجهن بمرواح
مزهبك ياراعيه تمر ومضيري
واحذر تشب النار يجفل من الضاح
والي ورد يشرب ثمانين بيري
غرافهن تسعين ودليهن مناح
رجليه بالحرة وصدره بسيري
ويشرب براسه من على جمة رماح
يا ويش هو شي طويل قصيري
يسبق زعاجيل الهواء يوم تنداح

فرد عليه ابن هادي:

يا تركي بن حميد وش ذا البعيري
ما تجلبونه كان تبغون الأرباح
لاعاد له خف وجناح يطيري
أنا أذكر الله راكبه كيف ما طاح
يا ربعنا يا كبر كذب الأمير
ويا حلو كذب مروية غلط الأرماح
كيف النعامة نوخت للبعيري
أقول إذا كذب على الناس فضاح

فانظر كيف تكون من هذين النصين نص جديد مصحوب بشروحات عجيبة ، وكذلك امتد التحريف والتغيير والتلفيق إلى المناظرات فيذكر مؤلف «الإبل في التراث الشعبي الفلسطيني» ص 238 نص مناظرة بين السيارة والجمل بهذه الصورة فالسيارة تقول:

الحق ما يظهره لي ضماني
وانا ضماني عند الدركسون
وتقعد عند الكرسي جنب الدركسون
ياسرع ما أعطيك الضمان

فيرد الجمل:

لاباس ربي كفيلي
على طريق الخير دايم دليلي
والصبر مفتاح الفرج والجميلي
وانا الجمل اناول صاحبي الرسن والبطاني

فترد السيارة:

انا التقدم ما على اعتراضي
انا وجهي من النور
امشي على ضو بعيد الأوزاني
انا الله خلقني من مفارك حديد
سعيد اللي باعني واشتراني
انا هذي كلامي والكذب مايعرفه لساني

فيرد الجمل:

هذا الطرومبيل اللي سمعت دعواه
لما افتخر والله عطاه
انا الجمل شدونيه بالمحافل
انا اطاوع كل عامل
اطاول الاطفال والارامل
وامشي مع الحجاج كل عام

ليحكم القاضي آخر المناظرة:

كلامكو عندي مختوم
الجمل عندي فضله دايم الدوم
تسامحوا وابقوا رفايق

وما كان هذا النص إلا تحويرا لمناظرة الشاعر أحمد الغامدي المشهورة في أصقاع الجزيرة العربية بين الجمل والسيارة والتي جاءت في حوالي سبعين بيتا من الشعر ومنها:

طلب المثل والنقل بين الفريقين
خصمين متعادين صلفين صعبين
قام الدعاوي والطلب بينهم بين
والكل منهم له مقاصد وشان
يا الجواد لو ما الحق بين العبادي
كان الضعيف مع القويين غادي
قالوا: صدقت و قلت: هذا المرادي
غير اذكروني بين قاصي ودائي

لنصل بعد هذه المقدمة إلى سماع دعوى كل من المتخاصمين:

قال الترنبيل: الذي جاك مأذون
انا ضماني في يديك الدركسون
اقعد على الكرسي وخليك مامون
ياسرع ما أوديك دار أماني

قال الجمل: لا باس ربي كفيلي
على طريق الخير دايم دليلي
الصبر مفتاح الفرج والجميلي
انا معك بالرسن والبطاني

قلت: ادعوا وانا قبلت الكفالة
من الذي يقدم وتسمع مقاله
قال الجمل: خله يقدم لحاله
يحنج و أنا قاعد في مكاني

قال الترنبيل:

أسمع إن كنت قاضي
انا اتقدم ما على اعتراضي
الأولة وجهي من النور ياضي
وامشي على ضو بعيد وداني

ولكن الجمل لم يسكت فأخذ يدافع عن نفسه:

البل عطايا الله إن: سئلت عنها
عند الهداوي ما يقدر ثمنها
حلايب الخطار حلو لبنها
جدت به المجعول عند ابن ثاني
يا ترنبيل الفضل وين باغي
لحمك من الكوتشوك وعظمك براغي
قدام ما حطوا عليك الصباغي
دقوك بين المطرقة والسنداني

وفي النهاية يحكم بينهما الشاعر:

كلامكم عندي مسجل ومعلوم
والحق يظهر يا غريمين مفهوم
أما الفضيلة للجمل دايم الدوم
هذا الصحيح والله المستعان

وفي النهاية اتمنى أن أكون بهذه النماذج قد جليت الدور الذي تضطلع به الرواية في انتقال الأدب الشعبي من بلد إلى آخر وما يصحب هذا الانتقال من تغيير وتحوير في النصوص الأصلية لتتوائم مع لهجة البلد المنقول إليه مع العلم أن النص حين يصل إلى بلد ما وقبل دخوله في المرحلة الأخيرة من التحوير يكون قد فقد الكثير من لهجته الأصلية.

قاسم بن خلف الرويس

■ الإعجاب بالنصوص أدى إلى تحويرها بلهجة البلد المجاور ليحلو بها السمر والتغني